آسفين يا صلاح

إسماعيل صالح محمود

ماذا تقول؟! أنت حتمًا أصابك الجنون.

هتفت زوجتي بهذه العبارة وقد استشاطت غضبًا واحتقن وجهها بشدة، ثمّ أردفت: تقضي على مستقبل الولد وتنهي مشواره الدراسي في هذا السن! الولد حصل على الشهادة الإعدادية وحسب.

هتفتُ بإصرارٍ واضحٍ: هذا من أجل مستقبل أفضل له.

ارتفع صوتها حتى بات أشبه بالصراخ: مستقبل أفضل! أي مستقبل هذا؟! أي مستقبل ينتظرُ شخصًا كل محصلته في الدنيا أنه بالكاد يجيد القراءة والكتابة؟

وجدتُ نفسي أصرخ بدوري: وماذا فعل الآخرون؟ ها! ماذا فعل الذين أجادوا ما هو أكثر من القراءة والكتابة؟ ماذا فعل حتى من حصلوا على الماجستير أو الدكتوراة؟! أجيبيني.

اتسعتْ عيناها قائلة: أي منطق هذا الذي تتحدث به؟ دعنا نفترض صحة ادعاءك هذا، هل هذا سبب كافٍ لتدمير مستقبل الولد!

إذا كان أولئك الذين ذكرتهم تتضاءل فرصهم في الحياة رغم درجتهم العلمية فما بالك بمن هو أدنى؟ أنت تنزع منه الحياة نفسها.

انخفض صوتي قليلًا: هذا ما تعتقدينه أنتِ أما أنا في المقابل أُعِدّ له مستقبلًا أفضل وأفضل بكثير.

تساءلتْ: وما هو؟

ملأتُ صدري بالهواء ونفثته كله دفعة واحدة قبل أن أقول: ابنك منذ أيام قليلة تم قبوله في اختبارات ناشئي النادي الأهلي هل تعرفين ماذا يعنى هذا؟

هتفت: وماذا يعني؟

يعني أن ابنك موهوب في كرة القدم وهذا هو المستقبل بعينه، إنهم يلعبون الكرة ويحترفون ويحصدون الملايين لسنوات ثم يعتزلون ويعملون بالتدريب أو الإعلام الرياضي ويستمرون أيضًا في حصد الملايين.

فاضت السخرية من كلماتها وهي تقول بتهكمٍ واضح: ملايين!

قل هذا، أنت تحققُ أطماعك الشخصية في ابنك، أنت لا تكترث

لشيءٍ إلا لما سوف تجنيه من وراء ذلك.

صرختُ: ماذا تقولين! أحذرك من التحدث معي بهذا الأسلوب! ولماذا أحذرك من الأساس؟ أنا لن أتحدثَ معكِ وما أبلغك به هو قرار وليس نقاش.

أجهشتْ هي بالبكاء وغادرت أنا مصطحبًا الولد إلى التمرين الأول بعد انضمامه إلى فرق الناشئين، في الطريق كنت أحتاج بشدة لأن أغمض عينيّ وأغوص في أحلام اليقظة، والتي باتت على بعد خطوات قليلة من التحول إلى واقع ملموس، تتابعت الصور في ذهني الواحدة تلو الأخرى.

ليونيل ميسي.. كريستيانو رونالدو.. كيليان إمبابي..محمد صلاح.. آه هذا الأخير هو النموذج الأمثل الذي يسيطر على كل تفكيري، هو الأمل الحقيقي الذى يصنعُ من أحلامنا هدفًا ويجعل لسعينا حافزًا وقوةً دفع هائلة وأيضًا يجعل لتضحياتنا قيمة، هذا الفلاح البسيط الذي افتقد لأبسط الإمكانيات، وصارع كل المعوقات وصعد إلى الأعلى دون دعم، هو الحلم المشترك لملايين البشر، هو تميمة

الحظ لكل المنحوسين، "حدوتة" قبل النوم التي ترخي بها الأمهات جفون صغارهن وتتركهم يسبحون في فضاء متلألئ يلهون بالنجوم، هو تلك الكلمات السحرية التي تعيد الموتى الأحياء إلى قمة الحياة، هو نبوءة الفقراء والمساكين، هو الغيث في أيام الجدب والجفاف، هو الوحي الذي يعيدُ للناس إيمانهم بأنفسهم، هو أمل المتعثرين على الثبات والقدرة.

المعادلة بسيطة؛ ارتقى هذا الشخص البسيط بسبب موهبته، واعتلى بها القمة دون دعم فما بالنا لو وجد موهوبًا دعمًا ومساندةً وتضحيات وكلّ شيءٍ حتى يصعد؟

كلّ المطلوبِ من الولد فقط أن يرفعَ قدمه ويصعدَ إلى أعلى وأنا سأتكفل بالباقي، هذا ما لا تدركه هذه الزوجة المأفونة التي أرهقتني بحديثٍ مجدب وجدال عقيم، ولكن حديثها حمل شيئًا من الصحة في جانب ما، وهو ما جعلني أُنهي الحوار، هكذا تسيرُ الأمور، مهما ادعيتَ تقفُ أمام الحقائق عاجزًا، تلك التي تلمس بداخلك كبد الحقيقة وصميم الأمر.

كشفتْ عما بداخلي من أحلامٍ بالمال والثراء، لكن بصيرتها لم تنفذ لما وراء ذلك، لا تملك من رهف الحس ما يُمَكنها من لمس انكسارات فقر وعوز أحدثت شروخًا بداخلي، لا تدري شيئًا عن شعور رجل فقد ثلاثة أرباع عمره وهو يلهث خلف بضعة جنيهات تكفي بالكاد لملء جوف زوجته وابنه، لا تعلم أن هذا الرجل الواقف على قدميه يصرخ بها يقبعُ آخر بداخله مهزومًا منزوٍ في ركن مظلم تكبله كل معانى العجز والضعف، لن تشعر بتلك الخطوط البيضاء التي تسطر في شعري كلمات الختام وأنا لم أبدأ بعد.

أليس لهذا خلق الأبناء؟ أليس لذلك نرعاهم ونتفانى من أجلهم؟ ألم يكن هذا هو دعاء الأنبياء؟ ألم نحمِهم من كل داء حتى يصيروا لنا دواء؟ ألم نكن لهم شمسًا في النهار حتى يضيئوا لنا قمرًا في المساء؟ ألم نشقَ حتى يكونوا هم أنفسهم نهاية الشقاء؟

هذه الأحلام التي سُلِبَت مني تباعًا حتى لم يبق منها إلَّا واحدٌ، فاتركوه واتركوني، فلن تجدوا مني إلا هو، ولن تجدوه بدوني.

مشينا سويًا جنبًا إلى جنب، خطواتنا إيقاعها واحد، ابتسامتنا واحدة، تفاؤلنا واحد، امتد أمامنا البساط الأخضر إلى ما لا نهاية وعلى مرمى أبصارنا لم يلتق الأخضر إلا بالسماء، تلك الخطوط البيضاء هي حدود مؤقتة سيتجاوزها قريبًا وأنا معه بالطبع، سنذهب إلى أبعد نقطة، إلى هناك.. وهناك.. إلى أن نلتقي بالسماء..

الاستقبال الحار أثلج صدري وقلبه تقافز مع كلّ لمسة للكرة، كلّ هجمة ووثبة منه.. ولكنه انخلع فجأة؛ كان الارتطام قويًّا للغاية، وأكاد أجزم بأنني سمعتُ صوت كسر قدمه من مكاني في المدرجات، وقفتُ مذهولًا وفقدتُ قدرتي على الحركة أو النطق.

في المستشفى لم يطرأ عليّ أيّ تغيير إلا من دموع متحجرة توخز عينيّ المفتوحتين عن آخرهما بشدة، خرج الطبيب منكسًا رأسه وأطال النظر إلى وجهي وكأنه يحاول أن ينفذ إلى داخلي يستشف شعوري في تلك اللحظة، لن يدرك بشر على وجه الأرض ما بداخلي الآن، حتى أنا؛ أشعر أنني أحوي بين جنبيّ شعورًا أعجز عن إدراكه أو تفسيره، كلمات الطبيب القادمة هي فقط ما أشعر به و أدركه تمامًا، وكأنني

سمعتها من قبل، كلمات تبعثُ بداخلي ارتجافة قوية وتمتد بقبضة باردة لتعتصرَ قلبي، نفد وقت الصمت والتردد وخرجت كلمات الطبيب أشبه بحراب سامة أصابت كلّ جزءٍ في بدني: الإصابة قوية للغاية وقد..

ابتلع لعابه وخرجت الكلمات المتبقية بصعوبةٍ بالغة: وقد لا تعود قدمه إلى طبيعتها مرة أخرى.

آخر حرف نطق به فجَّر الدموع المتحجرة في عينيه، والتي انهمرت كالسيل، فغامت أمامي الرؤية ثم.. أظلمت.